وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الحادية والعشرون

بقية دعائم الدولة الإسلامية: الأخوة

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، ما زلنا مع حياة رسول الله عليه السلام، ما زلنا مع النور، والحكمة، والجهاد، ما زلنا مع سيرة المصطفى عليه السلام.

فبَيْن نفحات العطر، وومضات الإشراق، أصبحنا في الخطبة الثالثة والثلاثين من سيرة عظيم الأخلاق، وقد دخلنا في الفترة المدنية بعد أن انتهينا من الفترة المكية.

وتكلمنا عن الدعائم الثلاثة التي بدأ بها رسول الله عليه السلام، ووضحنا في الخطبة الماضية الأمر الأول وهو بناء المسجد، وفى هذه الخطبة بإذن الله نستكمل بقية الدعائم.

ثانيًا: الأخوة

أما عن صلة الأمة ببعضها البعض، فقد أقامه الرسول عليه السلام على الإخاء الكامل، الإخاء الذي تمحى فيه كلمة (أنا)، ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة، ومصلحتها، وآلامها، فلا يرى لنفسه كيانًا دونها، ولا امتدادًا إلا فيها.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب، واللون، والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول عليه السلام هذه الأخوة عقدًا نافذًا، لا لفظًا فارغًا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر.

وقد ظهر ذلك جليا، فالمهاجرون: **"لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَسَمِّهَا لِي أُطَلِّقْهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، أَيْنَ سُوقُكُمْ؟ فَدَلُّوهُ عَلَى**

سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَمَا انْقَلَبَ إِلَّا وَمَعَهُ فَضْلٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، ثُمَّ جَاءَ يَوْمًا وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَهْيَمْ، قَالَ: تَزَوَّجْتُ، قَالَ: كَمْ سُقْتَ إِلَيْهَا، قَالَ: نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ"[1].

وإعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن.

فعلو الهمة من خلائق الإيمان، وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق في هذا العالم.

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل، والنقص، والجبن، والبخل، والجشع، لا يمكن أن يصح الإخاء أو تترعرع المحبة.

ولولا أن أصحاب رسول الله عليه السلام جبلوا على شمائل نقية، واجتمعوا على مبادئ رضية؛ ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله، فسمو الغاية التي التقوا عليها وجلال الأسوة التي قادتهم إليها نميا فيهم خِلال الفضل والشرف، فكان الأمر في عرفهم في غاية البساطة، وكانت معادلة بسيطة عندهم، ولكنها صعبة عندنا.

فالمهاجرون قوم تركوا فى سبيل الله أموالهم وأراضيهم، والأنصار قوم أغنياء بزرعهم وأموالهم، إذن فليحمل الأخ أخاه، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها، وليترله في بيته مادام فيه متسع لهما، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة.

أما نحن فربما نحل المعادلة بإقصائهم، أو نجعلهم خدمًا، ونعزلهم في أطراف المدينة.

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده، ولا يتكلف استخراجه الآلات والأثقال، والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح.

لقد ارتفعوا وارتفعوا بالإسلام، وكانوا عبادًا لله إخوانًا، ولو كانوا عبيدًا لأنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٧٨٠).

على أن ذلك كله لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظامًا يؤخذون بحقوقه أخذًا كأي قانون شريف.

فقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة فى توارث التركات إلى موقعه بدر، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦] ، فألغي التوارث بعقد الأخوة، ورجع إلى ذوي الرحم.

وحكمة ذلك أن فى أول الأمر ضمانة لتحقيق مبدأ التآخي، والتعاون، والتناصر، فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وغدت الروح الإسلامية وحدها هي العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة؛ أصبح من المناسب انتزاع القالب الذى كان قد صب فيه نظام العلاقة بين المهاجرين والأنصار إثر التقائهم في المدينة، إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك والتميع فى ظل الأخوة الإسلامية العامة، ولا ضير حينئذٍ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثرًا زائدًا على قرابة الإسلام وأخوته.

ولكن لا بد أن تلاحظ أنه لا يتحقق مبدأ العدالة الاجتماعية في أي مجتمع إلا إذا تحقق مبدأ التآخي، ولا يتحقق التآخي إلا إذا اتحدت العقيدة، فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم .

فإن لم يتحقق مبدأ التآخي في أي مجتمع؛ تجد المجتمع كالغابة، يأكل القوي الضعيف، ويتعدى الغني على الفقير، وتذوب القيم وتتميع المبادئ.

وقد بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى هذا التآخي، ففي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

﴿أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

هذا التآخي عباد الله الذي فقدناه نحن كمسلمين، فقد بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى هذا التآخي بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولكننا نكاد أن لا نرى مثل هذه المعاني، نكاد لا نرى الشفقة والرحمة بيننا، ففي بعض الأحيان تشعر وكأنك في غابة يأكل القوي الضعيف.

فعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ"**[١]، هكذا علمنا ﷺ حتى لا تضيع هذه المعاني الشرعية من حياتنا، وقد جعل الله سبحانه وتعالى حقوقًا بين المسلمين بعضهم بعضًا، منها:

١. الرحمة:

يوصينا النبي ﷺ بالرحمة قائلًا: **"مَنْ لَا يَرْحَمْ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللَّهُ ﷻ"**[٢]، بل يأمرنا ﷺ بالرحمة ونحن داخل الرحمة، يقول ﷺ: **"إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ؛ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ، وَالسَّقِيمَ، وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ؛ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ"**[٣].

٢. ونرى أيضًا عمق هذه الأخوة في وصية الشرع بعدم الإيذاء:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وبَيَّنَ رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: **"إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ**

---

[١] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٤٤٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٨٥).

[٢] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٣٧٦)، وروه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (٢٣١٩).

[٣] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٠٣)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٤٦٧).

يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ، أَوَ قَالَ: لِيَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا"[1]، معانٍ عظيمة يريد منا ﷻ أن نحققها، ولكن نرى في أنفسنا العجب، نرى أنفسنا في معركة شرسة بيننا وبين بعضنا، وكأننا عكسنا الصورة.

٣. ومن هذه الحقوق الحب والتعاون بين المسلمين:

يقول رسول الله ﷺ: **"الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ؛ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**[2].

ويقول ﷺ: **"لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"**[3]، والنجش: هو أن تزيد في السلعة وأنت لا تريد أن تشتريها لتغري المشتري فتزيد من قيمة السلعة، والمدابرة: المقاطعة في الكلام، وكذلك: **"وَلَا يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ"**[4].

٤. ومن هذه الحقوق النصرة:

فعن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: **"انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولُ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ"**[5].

٥. ستر عورات المسلمين:

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى**

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٠٧٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٦١٥).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٤٤٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٨٠).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٠٦٦) بلفظ قريب، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٦٤).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥١٤٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٠٨).

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٩٥٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ قريب (٢٥٨٤).

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[النــور: ١٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: **"لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**[1]، والستر تابع للمصلحة، فإذا كانت المصـــلحة في الستر؛ فهو أولى، وإن كانت في الكشف؛ فهو أولى، وإن تساويا؛ فالستر أولى.

٦. الشفاعة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: **"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقَالَ: اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ"**[2].

٧. يقول عليه السلام: **"حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَــرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ"**[3].

ومن هذه الحقوق: إذا استنصحك؛ فانصح له، ومنها إبرار القسم ونصر المظلوم.

---

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٩٠).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧٤٧٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (٢٦٢٧).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٢٤٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢١٦٢).